جامعة الملك سعود
King Saud University

كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الندوة الدولية الثانية

قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسات الحديثة

٢٥-٢٧/٤/١٤٣٥هـ
٢٥-٢٧/٢/٢٠١٤م

المحتويات

البحث	الصفحة
كلمة رئيس الندوة د. خالد عايش الحافي	٣
كلمة رئيس التحرير أ. د. نورة الشملان	٥
خطاب التجديد في مجال إحياء التراث عوض بن حمد القوزي	٧
قراءة النقد الثقافي للتراث الأدبي: آفاق التلقي والتأويل أميرة بنت سلمان القفاري	١٧
قراءة حداثية للتراث وإشكالات المنهج دياب قديد	٤٥
من جهود المغاربة في قراءة النصوص الأدبية والنقدية التراثية: دراسة مصطلحية رشيد سلاوي	٦٧
إشكالية المنهج عند النقاد المعاصرين ودورها في تطوير قراءات الشعر القديم عبدالقادر الحسون	١٠١
رهانات تأويل الخطاب التراثي: تأصيل الكيان من المنظور الحواري فاتحة الطايب	١٢٧
معالم النظرية الإشارية في فكر الإمام ابن قيم الجوزية والدرس اللساني الحديث إدريس بن خويا وفاطمة برماتي	١٤١
التناول النصي في التراث النقدي العربي: دراسة في ضوء لسانيات النص رشيد عمران	١٥١
الشروط الأساسية في قراءة التراث اللغوي واللساني مجدي بن صوف	١٦٣
تفسير النص القرآني وتأويله بين المنهج السلفي والاتجاهات الحداثية محمود أبو المعاطي	١٨٥
الآليات التداولية لتحليل الخطاب من وجهتي نظر الأصوليين والتداوليين المحدثين مختار درقاوي	٢١٣
رثائية المعري الإنسانية: قراءة من منظور تناصي إبراهيم الدّهون	٢٥١
قراءة عبدالقاهر الجرجاني وتصوّره لفعل القراءة أبوعبدالسلام محمد الإدريسي	٢٦٧
قراءة القرطاجني في ضوء نظريات تحليل الخطاب الحديثة خليفة الميساوي	٢٨٣
قراءة التراث الأدبي: التراث السردي نموذجًا سعيد يقطين	٣١١
القراءة العاشقة أو إستراتيجية قراءة النص السردي الكلاسيكي: عبدالفتاح كيليطو نموذجًا عبدالرحمن بوعلي	٣٢٣

البحوث

المشرف العام

د. خالد بن عايش الحافي

رئيس التحرير

أ.د. نورة بنت صالح الشملان

مدير التحرير

د. يوسف بن محمود فجال

أعضاء اللجنة العلمية

أ. د. صالح بن زيّاد الغامدي
أ. د. إبراهيم بن سليمان الشمسان
أ. د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك
أ. د. مها بنت صالح الميمان
د. محمد بن لطفي الزليطي
د. بسمة بنت ناجي عروس

المدقق اللغوي

د. حسين المناصرة

البحث	الصفحة
أسلوب النداء في العربية دراسة في تداوليّة الخطاب أيمن محمود محمد إبراهيم	٣٤٣
القضايا التداولية للواسمات في الدرس اللساني العربي ومحطات التقاطع الإبستمولوجي في الدرس المعاصر الجمعي أبو العراس	٣٦٥
نحو قراءة إبستمولجية معرفية للتراث النحوي العربي عبدالرحمن بودرع	٣٧٩
اللسانيات والتراث النحوي: إشكالات منهجية وإبستمولوجية محمد بن صالح وحيدي	٤٠٩
الضرورة الشعرية بين نحو الجملة ولسانيات النص منال نجار	٤٢٥
السيميائيات التأويلية إبدال نقدي لقراءة التراث وترهينه عبدالله بريمي	٤٥١
سيميائيات التلفّظ وتأويل الخطاب: بائية علقمة الفحل أنموذجًا عبدالفتاح يوسف	٤٧١
التحليل السيميائي للنصوص التراثية: مقاربة لتجربة عبدالفتاح كيليطو عبداللطيف محفوظ	٥١٧
آليات تحليل النص التراثي في ضوء المناهج المعاصرة السيميائية / التداولية نادية لقجع جلول	٥٣٣
قضايا تداولية في الخطاب القصصي القرآني: قصة سيدنا يوسف أنموذجًا إيمان جربوعة	٥٥٧
المعجمية الحديثة وإعادة قرءة التراث اللغوي العربي عبدالرحمان أحمد يجيوي	٥٧٩
المهمل في المعجم العربي وسبُل استثماره في وضع المصطلح عبدالقادر بن ميلود سلامي وسليمة حبيب بحياوي	٦١٣
نحو تسطيع «المرايا المقعرة» قراءة نقدية في بعض القضايا الواردة في كتاب المرايا المقعرة حميدي بن يوسف عمر	٦٣١
وقائع الخطاب في كتاب مجالس العلماء للزجاجي وسمية عبدالمحسن المنصور	٦٥١
تأصيل التراث في ظل الأدب المقارن بشير أحمد يوسف عمر	٧٠١
ماهية التراث ضمن المحمولات الأيديولوجية الحديثة عند الشاعر العربي المعاصر حبيب بُوهرور	٧٢٥
القراءة الحداثية للتراث: موقع التراث في بيانات الحداثيين العرب عبدالله العشي	٧٤٥
النقد الحداثي ورهاناته بين نصوصيّة عربية وإجرائية غربيّة لعموري زاوي	٧٦٥
المصطلح النقدي Hermenetics بين خلفية الفكر الغربي وواقع التصور العربي مختار عبدالقادر لزعر	٧٨٥

العنوان

ص.ب : ٢٤٥٦
الرياض: ١١٤٥١
هـــاتف: ٠١١٤٦٧٥١٠١
فـــاكس: ٠١١٤٦٧٥٠٩٤

البريد الإلكتروني

nadwa.arabic@ksu.ed.sa

الشروط الأساسية في قراءة التراث اللغوي واللساني

مجدي بن صالح بن صوف

الأستاذ المساعد في علوم البلاغة واللسانيات، جامعة تونس(١)

ملخص:

حاولنا في مقال "الشروط الأساسية في قراءة التراث اللغوي اللساني" تقديم تصور شامل ودقيق عن الشروط الضرورية الدنيا التي يجب أن تتوفر في الباحث في التراث اللساني وهدفنا من ذلك هو إعادة البحث اللغوي اللساني العربي إلى حركة الفكر البشري اعتمادا – في جزء منه - على النظر في هذا التراث . وقد اختزلنا جملة هذه الشروط في ضرورة إيمان الباحث أنّه يعالج ظاهرة مشتركة بين كل البشر في الزمان والمكان وهي "اللغة" فما قيل فيها منذ ألف سنة قد يكون مفيدا. إذ الأفكار لا تسير في صورة موازية لحركة الزمن التاريخي ولو كان الأمر كذلك لضربا صفحا عن كل فكرة سابقة لزماننا.

و النظر في الأفكار السابقة يقتضي منا إعادة فهم لبعض المفاهيم المركزيّة في البحث اللغوي يكون منها، لا يتجاوزها ولكنه يستغلها استغلالا جديدا.و يتدعّم هذا الأمر بالبحث عن الحدوس الأولى المنشئة للفرضيات الكبرى من داخل التراث .ولا يكون ذلك إلا باعتماد مناهج نظرية قوية مثل المنهج الافتراضي الاستنباطي الذي أثبت نجاعته النظرية في البحوث اللسانية ولا تكتمل الشروط الضرورية إلا بالنظر المباشر في النصوص لا بالاعتماد على قراءات سابقة قد غلفت بأفكار مسبقة .

مقدمة:

تعدّ قراءة التراث العلمي العربي الإسلامي مسألة أساسية في البناء الفكري العامّ الذي تضطلع به المؤسّسات العلميّة خاصة أمام الوضع المزدوج الذي أصبح يعيشه الباحث العربي اليوم.

فنحن نقف بين كمّين هائلين من المعارف يبدوان في الظاهر من طبيعتين مختلفتين : ما نقف عليه من نتائج وملاحظات وأعمال وفكر ثاقب في مصنفات القدامى، وما يطلع علينا كلّ يوم من مُنتج علمي جديد من هذا العالم الذي يفكر ويقود ويسيطر. وبين هذا وذلك تتباين المواقف النفسيّة والفكرية من هذا الإرث. وإذا اختلط الفك

ر بالعاطفة تكدّر صفاء العاطفة وانحلت صرامة الذهن المفكّر وطفت مخاطر هذا الخلط ،خاصة إذا ترُجم هذا الخلط بحثًا وفكرًا .

وهذا ما لمسناه واضحًا عند شق من الناظرين يتلذذون باستذكار هذا التراث التليد بحثًا عمّا ضاع من الماضي ومحاولين التّمَوْقع النفسي في الحاضر بوَهم أنّنا كنّا نقود قاطرة الفكر والعلم ومازلنا كذلك حتى بأفكار أنتجها أجدادنا .

أو عند شق آخر يحمل مواقف ناقمة من وضعنا الرّاهن فلم تر من حلّ سوى القطع مع الماضي بكلّ ما فيه ، وإرجاع ما صرنا إليه إلى تخلف أفكارنا التي يَسِمُونها "بالأفكار القديمة " استهجانًا، فلم يروا الحلّ إلاّ في الضرب صفحًا عمّا أنتجه هذا التراث والارتماء في عربة من عربات القطارات السريعة التي تقود عالمنا الحديث ، فعلى هذا الفكر تكون المراهنة حسب أصحاب هذا التصوّر.

١- الخلفية العلمية الداعية إلى رفض التراث اللغوي :

إن كان الارتماء في التراث وتمجيده نابعًا –في الغالب - من خلفيّة نفسيّة عاطفيّة مشتركة يرى في الماضي بطولة وعظمة تصل حدّ القداسة ، فإنّ للموقف الصّارم الذي دفع البعض إلى القطع مع التراث عامة و التراث اللغوي خاصة دوافعه العلميّة المسكوت عنها في الغالب.

استندت مواقف هذا الشق من التراث اللساني العربي إلى مواقف المدرسة البنيويّة ، فقد ساد موقف ناقد عامّ قائم على نقد الأنحاء الأوروبيّة التقليديّة وقد امتد قرابة نصف قرن وتحديدًا من لحظة ظهوره دروس في اللسانيات العامة لـ"دي سوسير" سنة ١٩١٦[١] إلى بداية السبعينات مع انحسار هذا التيّار [٢].

وقد تجلى هذا الموقف واضحًا في أعمال لويس هلميسلاف[٣]. فقد ذهب صاحب كتاب "مقدمات لنظرية في اللغة" إلى أنّ النحو الأوروبّي التقليدي كان فيه من العيوب ما عاق تأسيس نظريّة نحويّة وأنّه نحو اقتصر على جملة من التطبيقات اللغويّة المحوريّة من الأبنية اللغوية . هذا الموقف من التراث النحوي الغربي استنسخه بعض الباحثين العرب في مجال التراث اللغوي اللساني العربي . ويمكن اختصار مواقفهم في النقاط التالية :

- القول بعدم وجود نظريّة علميّة متماسكة في التراث اللغوي .
- الذهاب إلى أنّ البحث اللغوي لم يتجاوز " الممارسة النحويّة " القائمة على إصلاح لحن الأعاجم فهي قضايا تخصّ أساسًا التطبيق النحوي.

---

(1) De Saussure F, Cours De Linguistique Générale.

(٢) أورفييه ميشال ، البحث عن دي سوسير من جديد .

(3) Hjelmslev, L. 1971 Prolégomènes A Une Théorie Du Langage.

- الإيمان بأنّ البحث اللغوي العربي خال من الانسجام المنطقي الدّاخلي.

هذا الإسقاط في النتائج نبع من عدم مراعاة الفوارق الأساسيّة في طبيعة التراثين اللغويين فالتراث اللغوي الغربي يختلف عن التراث العربي من وجوه [١] :

فإن قام التراث الأوروبي التقليدي على دراسة المكتوب فقد قام التراث العربي على دراسة المنطوق ، والدليل على ذلك الدراسات الصوتيّة والعروضيّة والمعجميّة التي طوّرها الخليل بن أحمد (١٧٠هـ) ، وما لاحظناه من وصف صوتي عند سيبويه في الكتاب ومن جاء بعده.

- اعتماد النحاة السّماع أصلاً من الأصول الأساسيّة في استقراء لغتهم وما توارد مفهومي السماع والقياس في المباحث الصوتيّة إلاّ دليلاً على اعتماد السماع إجرائيًّا.

- عدم اعتماد النحاة العرب مناويل نظرية سابقة درست لغات سابقة كما هو الحاصل في النحو الأوروبي التقليدي الذي اعتمد المنوال الإغريقي وحاولوا قياسه على ألسنتهم المحليّة[٢]، فالنّحاة العرب درسوا اللغة العربيّة في مستوياتها المختلفة دون مثال سابق، إلا ما التقطوه لحظة بحثهم التي تفترض الدراسات التاريخية العلمية المختلفة أنّها مرّت بمراحل تطوّر مختلفة، قبل أن يظهر المصنف الأوّل في الزمن الأخير في المرحلة الأولى من مراحل التأسيس والمتمثل في " كتاب سيبويه "[٣].

من هنا نكون قد كشفنا الخلفيّة الفكريّة للموقف الإقصائي الذي يستند إلى إسقاط مباشر لموقف عام من الأنحاء التقليديّة الغربية .

لئن تدارك الفكر اللساني المعاصر موقفه من الأفكار التقليدية مع الاتجاه التوليدي الداعي إلى الأخذ من هذه الأفكار واعتمادها، لإيمانه أن تاريخ الأفكار لا يمكن أن يصنف اعتمادًا على الزمن التاريخي[٤]، فان مِن الباحثين العرب المعاصرين مَن بقي مشدودًا إلى الموقف المناوئ للبحث في التراث.

إذن بين مقاربة ممجّدة وأخرى ساخطة ظهرت في العالم العربي أصوات ترى ضرورة مراجعة علاقتنا بالتراث من جهة العاطفة والفكر.

---

(١) قنوني منيرة ، قضايا المنوال والتناسق النظري اعتمادًا على مسائل الخلاف ص ٥- ٦ .

(٢) أعلام الفكر الغربي ، التقليد الغربي من سقراط إلى دي سوسير تأليف روي هاريس وتولبت جي تايلر .

(٣) بو دية محرز : قراءات في عتبات الكتاب.

(٤) يعترف تشومسكي صراحة باعتماده الأفكار التقليدية التي أخذها عن همبولت وديكارت في غير موضع من مصنفاته . انظر كتاب اللغة والمسؤولية ، ص ٣٨ تشومسكي .

أمّا عاطفيًّا فهي مسألة شخصيّة نفسيّة وستبقى كذلك، وليس من مهام الدوائر العلمية أن تدفع الناس إلى الحب أو الكره إلا من جهة النجاعة الفكرية، فالفكر هو القضية الجماعيّة المشتركة لذلك يجب حلها في إطار فكري جماعي. ولعلّ هذه الندوة خير مثال على الأطر التي يجب أن تتناول القضايا الفكريّة الأساسية الجامعة بصورة موضوعية حتى تكون نتائجها دافعًا حقيقيًا لحركة البحث العلمي. من هذه الزاوية نقدّر أنّ الخطأ في المقاربة راجع أساسًا إلى عدم فهم دقيق لأهم الأفكار الأساسية المبثوثة في النصوص من داخلها . وهو ما يسلمنا إلى تحديد مكانة التراث اللغوي من الإرث العلمي عامّة .

٢- مكانة التراث اللغوي اللساني ضمن الإرث العامّ :

يحتلّ النتاج الفكري الحاصل من البحث في اللغة بكلّ فروعها مكانة مميّزة ضمن الإرث العلمي العامّ. ذلك أنّ النظر الدقيق في هذا التراث يخوّل لنا الحديث عن منحى كوْني عامّ فيه من جهة الموضوع والنتائج . والبعد الكوني يقتضي منّا البحث عن شروط منهجيّة عامّة تمثل الحدّ الأدنى المشترك الذي يجب أن يعتمده الباحث في التراث اللغوي اللساني اليوم. ويمكن أن نختزل الشروط المنهجيّة في :

- إعادة ضبط الحدود العامة للمفاهيم المركزيّة ، مفهوم النحو نموذجًا .
- وحدة الموضوع ، وهي اللغة .
- البحث عن الحُدوس الأولى وبيان أهميّتها للباحثين.
- التعامل مع التراث النحوي باعتماد مناهج نظرية قوية ، المنهج الافتراضي الاستنباطي مثالاً.
- النظر المباشر في النصوص وعدم التعويل على قراءات سابقة .

٣ – إعادة ضبط الحدود للمفاهيم المركزيّة مفهوم النحو نموذجًا:

استقرّ في العُرف العلمي الذي تناول بالدرس التراث اللغوي المقابلة التقليدية بين "مفهوم النحو" واللفظ الإغريقي "suntaxis" المتكونة من لفظين وهما sun بمعنى "مع" و "taxis " بمعنى الترتيب ، أي العلم الذي يُعنى بترتيب الكلام [١]. لقد فهم لفظ "نحو" على أنّه "العلم الذي يختصّ بقوانين الأطراف" على حدّ قول الفارابي[٢] في إحصاء العلوم (ص٧) ، فاقترن مفهوم النحو بالتركيب الذي ينْجُم عنه تغيير في أواخر الكلم ، وأصبح مفهوم النحو يؤخذ على أنّه فرع من فروع العلوم التي تُعنى باللفظ وتغييره مثل علم الصّرف وعلم الأصوات والمعجم.

---

(١) صالح الكشو : مدخل في اللسانيات .

(٢) الفارابي : إحصاء العلوم دار الفكر العربي القاهرة .

وقد استقرّ هذا الاتجاه خاصّة في مرحلة التفصيل ولعلّ هذا الفصل التعليمي المنهجي الذي تعلق به دارسو اللغة هو الذي سيطر على غيره من التصوّرات.

ولهذا التصوّر التجزيئي لعلوم اللغة أثره في التعامل مع التراث اللغوي فهو يرى أنّ الفكر الذي عالج اللغة باللغة هو مجموعة من الصّناديق المغلقة التي لا يمكن أن نفتح الواحد منها إلاّ بعد غلق الأخرى.فإذا فتحتَ باب الصرف أغلقت باب المعجم وإذا فتحت باب الإعراب أغلقت باب البلاغة.

وقد حجب هذا التصوّر العمقَ النظري الذي انطلق منه المؤسّسون. فالنحو في تصوّرهم هو المقابل المباشر لـ "قراماطيقا" الذي يشمل حسب الفارابي "علم قوانين الألفاظ عندما تتركب، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة" أي الألفاظ في مستوياتها المختلفة مفردة وتركيبًا.فعلم النحو هو العلم الذي يتناول الظاهرة اللغوية من جميع زواياها .

يعتبر هذا التوسّع في المفهوم ضرورة منهجيّة أساسيّة[1]، ولم يكن انطلاقًا من مقاربات معاصرة أو إسقاطًا لتوجّه سائد اليوم في التصوّر التوليدي لمفهوم Grammar ولكنه متأت من استقراء عامّ للنص المؤسّس للنحو العربي وهو الكتاب لسيبويه . فما جاء في الكتاب من قضايا تركيبيّة صرفيّة اشتقاقيّة صوتيّة ومعجميّة وتداوليّة تغري الباحث بالاعتماد على المفهوم المتحقق بالفعل في النصّ لا بالتعريف المفهومي المجتثّ من سياقه . إذن يجب أن نتجاوز المفهوم الضيّق "للنحو" الذي التصق به في مرحلة من مراحل النظر، لننظر إلى كلّ مقاربة لغويّة ضمن نظام يقوم على انتظام مخصوص بين مكوّناته التي تبدو مختلفة ولا تصل بينها مجموعة من العلاقات المختلفة . عنوانه الكبير هو "النحو" فيصبح مفهوم النحو بهذا التصوّر هو المقابل المباشر لـمفهوم Grammar في اللسانيات الحديثة ، ويصبح " الإعراب" هو المقابل المباشر لـ syntax.

لهذا التوسيع في دائرة المفهوم أهميّته فهي تدفع الباحث في قضايا اللغة إلى التعامل مع التراث النحوي باعتباره دراسة لجملة من المستويات الأساسيّة التي يتكوّن منها اللفظ والتي يقتضي بعضها الآخر. بل إنّنا لا يمكن أن نفهم ظاهره (س) في مستوى (ب) إلاّ إذا نظرنا إلى صورتها في المستوى (أ) وفي مدى تحققها في مستوى (ج) إذ المستويات اللسانيّة للفظ مترابطة يختزل بعضها البعض وينشر بعضها البعض الآخر.

(١) أول من دعا إلى توسيع النظر في هذا المفهوم هو الأستاذ الدكتور محمد صلاح الدين الشريف في دروسه التي ألقاها في الجامعة التونسية منذ الثمانينات من القرن السابق. ولقد تأثر مجموعة من الباحثين بهذا التصور فجاءت بحوثهم مراعية لهذا الاعتبار.

المستويات الأساسيّة للنحو هي:

- المستوى الصّوتي العام بفرعيه الصّوتي والصّوتمي .
- والمستوى الصّرفي بفرعيه التصريفي والاشتقاقي.
- والمستوى الإعرابي بمستوييه المجرّد والمنجز.
- والمستوى المعجمي بفرعية النظري والتطبيقي .
- وتتأتى الدلالة الإنجازيّة التداوليّة في المستوى الأخير .

إذا نظرنا إلى التراث من هذه الزاوية فهمنا ما اعتبره البعض تداخلاً في بعض النصوص الأولى. في حين أنها تقيم دليلاً إجرائيًا على أنّ معالجة القضايا اللسانية لا تكون إلاّ بـ "تعامل فروع النّحو بعضها ببعض ، وإنّ حلّها لا يكون إلاّ بدراسة خصائص التعامل بين الأبنية المنتمية إلى هذه الفروع" فأيّ شبه من الأبنية كبنية الشرط أو الاستفهام أو الوصل "ليست قضيّة إعرابيّة فقط أو صرفيّة إنّها متصلة بقضايا العلاقة بين المعجم والأبنية الصّرفيّة والإعرابيّة والعلاقة بين المقولات والوظائف والظاهرة الصّوتية اللفظية التي تحتاج إلى نوع دلالي"[1] (الشريف ص٦٣).

ولتبيّن هذا التداخل القائم على مراعاة المستويات اللسانية المتداخلة نورد المثال التالي لنبيّن ببساطة تداخل المستويات المختلفة في إنشاء دلالة الجملة التالية : فجملة :

[تخاصم الرّجلان]

لا يمكن أن تفهم إلاّ :

- باعتماد المستوى الإعرابي التركيبي في علاقة الفعل بالفاعل وعلاقة العمل التي تقتضي مواضع نحويّة مجرّدة وهي مواضع الرّافع والمرفوع وما ينجرّ عنها من حالات إعرابيّة تعيّن بعلامات الإعراب هذا دون البحث عمّا يوجد من مكوّنات تكون موجودة بالقوة قبل بناء الجملة .
- باعتماد المستوى الصرفي ، فصيغة "تفاعل" التي يُبْنى عليها الفعل مجردًا تقتضي في أصل البناء أن يكون الفاعل متعدّدًا فلا يمكن أن نقول تخاصم الرّجل، إلاّ إذا أردفناه بما يحقق مقولة الجمع [تخاصم الرّجل وقومه] .إذن اقتضت الصّيغة في أصل وضعها أن يخضع الفاعل لمقولة العدد التي تتحقق تصريفيًّا بالصيغة أو تركيبيًّا بالعطف .

(١) الشريف محمّد صلاح الدّين : الشّرط والإنشاء النّحوي للكون .

- باعتماد المستوى المعجمي : فدلالة الجذر "(خ،ص،م)" تفترض انتقاء دلاليًّا يكون الفاعل المتصل بالفعل حاملا لمجموعة من السّمات التمييزيّة أهمّها أن يكون ، [حيًّا، عاقلاً ، متحركًا ...]. فإذا اخترق الفاعل هذه السّمات وقلنا [تخاصم الحجر] أو [تخاصم الشجر] كان الخطأ .والخطأ نوعان، خطأ مرفوض يقتضي إصلاح البنية وخطأ مقبول بل مرغوب فيه وهو الذي يُدخلنا عالم البلاغة من باب الاستعارة.

وقبل كلّ هذا لا بدّ من وجود بنية صوتيّة تتحقق بها الأبنية لفظًا.

نلاحظ إذن كيف تتحرّك الأبنية ضمن هذه المستويات التي تبدو في الظاهر مختلفة مستقلة في اتجاهات متداخلة مترابطة لتنتج لنا " كلامًا مستقيمًا ذا فائدة".

من هنا جاءت ضرورة الأخذ بالدلالة الكبرى لمفهوم النحو وهي الدلالة الأولى البسيطة التي اعتمدها نحاتنا الأوائل . هذه الضرورة فرضت علينا هذه القراءة ، وهي قراءة تنسجم مع الاتجاهات اللسانيّة في معالجة الظاهرة اللغويّة. وما التمثيلات المختلفة التي نجدها مع تشومسكي أو مع جاكندوف في تصوّرهم للنحو إلاّ دليلاً على مدى الانسجام بين التصوّرات.

لقد اقتصرنا في هذا العمل على تقديم مفهوم واحد وهو مفهوم "النحو" لنستدلّ على أثر إعادة النظر في المفاهيم التراثية في قراءة مغايرة للتراث تراعي الثراء الحقيقي فيه وتنسجم مع التوجهات النظرية الكبرى في البحث المعاصر .ولكن الأمر يتعلق بمجموعة كبرى من المفاهيم المركزية في التراث إذا أعدنا النظر فيها قد تفتح أمامنا سبلاً جديدة في المقاربة .

٤- وحدة الموضوع في الدراسة اللسانيّة

انطلاقًا من توسيعنا لدائرة النظر في النحو وجب تغيير النظر إليه من اعتباره معرفة تشتغل على لسان مخصوص لتقويمه إلى علم ينظر "في المعاني العامّة التي لا تكون فارسية ولا هندية".ولا يكون ذلك إلاّ من خلال اللفظ فاللفظ هو الوسيلة الوحيدة التي نشتغل عليها.[١]

هذه الفكرة مركزية في البحث اللساني وقد أشار إليها هيغل "فنحن لا نفكر إلا داخل الكلمات ولا ثقة لنا في أفكارنا المحددة والحقيقية إلا حينما نضفي عليها طابع الموضوعية ونميزها عن إسقاطاتنا الذاتية ونسجلها في شكل خارجي يحتوي أيضًا على خاصية الفعالية الداخلية الأكثر سموًا .إنّ الشكل عبارة صوت متصل أو كلمة تعطينا بمفردها وجودًا يتحد فيه الداخل بالخارج في صورة بديعة "[٢].

(١) التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ص١١٦ .

(٢) فلكس الكان ، فلسفة الروح سيكولوجية الفكر النظري .

والأمر نفسه يشير إليه مورلوبنتي حين يرى " أن الفكر لا وجود له خارج العالم وبعيدًا عن الكلمات "[١] .

فالموضوع الذي يدرسه هذا العلم هو اللفظ والمعنى والعلاقة الرّابطة بينهما."و اللفظ أمر لا بدّ منه حتى تكون اللغة"[٢].ومهما تنوّعت الدراسات للابتعاد عن اللفظ بوسائل مختلفة منها اعتماد الرّموز الرياضيّة أو المنطقيّة في العلوم الصّحيحة أو في البحث عن المعاني الضمنية فلابدّ لها أن تنطلق من اللفظ.

وإن كنّا نرفض من يعالج اللفظ مع إهمال المعنى كما ساد في الدراسات البنيويّة أو في الدّراسات الشكلية للمعنى ، " فإنّه من المستحيل أن يعالج المعنى بدون لفظ" (ن م).

نجد هذه الفكرة أيضًا عند تشومسكي في منوال النظرية المعيارية الموسّعة حين اعتبر البنية العميقة والبنية السطحية هما اللتان تختزلان المعنى اعتمادًا على مجموعة من النُقُول بينهما[٣].

مهما يكن من أمر فالنحو مداره اللغة ، واللغة لا تكون إلاّ بمكوّنيْها المعنى واللفظ . أمّا المعنى فمهما تجرّد فلا بدّ من تعيينه بشيء يدلّ عليه لفظًا أو ما عُدّ من قبيله كالرّمز أو الإشارة . وتبقى وظيفة اللفظ هي إخراج هذا المعنى المتصوّر الذي يختلج في أذهان البشر إلى الواقع المادّي المحسوس الخارجي وعليه فلا يمكن لنا في معالجة اللغة أن نتحدّث عن معنى دون لفظ . هذه الفكرة أساسيّة وضروريّة ونحن نعالج التراث النحوي.

عالج النحاة - البلاغيون اللغة ولم تكن معالجتهم لها بالنظر في المعاني مباشرة بل كان بالنظر إلى اللفظ ، فهي الوسيلة الماديّة الوحيدة الكفيلة بالوصول إلى إنشاء المعنى ولم يكن لهم في ذلك خيار. وما أنجزه النحاة العرب سبقهم إليه الهنود واليونانيوّن وأنجزه بعدهم الأوروبيّون والأمريكان.

فكلّ الأفكار التي عالجت هذا المشترك في اللغة اعتنت باللفظ من زوايا مختلفة. من هذا المنطلق يجب أن يدرك الدّارس للتراث أنّه لا بدّ أنّه سيجد هذا المشترك العامّ وإن ظنّ أنّه يعالج لسانًا مخصوصًا هو اللسان العربي.

وهو ما يشير إليه التوحيدي بصورة واضحة عندما يتحدّث عن الألفاظ فيقول " اعلم أنّ لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في أسمائها وأفعالها وحروفها" (ص١١٦)، ولكنّ الفارابي يرى أنّ" للألفاظ أحوالاً تشترك فيها أحوال جميع الأمم ، مثل إن الألفاظ منها مفردة ومنها مركّبة" (الفارابي ص١٨).

---

(1) Merleau Ponty ، Phénoménologie De La Perception .

(٢) الشريف ، الشرط والإنشاء النحوي للكون ص ٥١ .

(3) Chomsky N., deep structure surface structure and semantic Interpretation

هذه الملاحظة تكشف عن وعي المتقدّمين بهذا التصوّر العامّ في معالجتهم للفظ، فإذا كان من المسلم به أنّ المعاني المحدّدة مشتركة بين الخلق، ولا يمكن لأحد أن ينظر في ذلك فإنّ الألفاظ المعبّرة عن الألسن قد تشترك أيضًا؛ لأنّها تعبّر بشكل من الأشكال عمّا يوجد في الفهم المركوز أصلاً في الذهن.

ويبرز هذا جليًّا في تقسيم الفارابي حين يرى أنّ النطق ثلاثة أقسام "النطق الخارج وهو القول الخارج بالصّوت وهو اللفظ ، والنطق الدّاخل وهو القول المركوز في النّفس" (ص١٩) وهو الحالة التي تهيّأ فيها الصّورة الذهنيّة لما يقابلها من دالّ في المستوى النّفسي.وأخيرًا النطق الذي هو في النّفس بالفطرة وهو"القدرة الأساسيّة المتطوّرة في الإنسان التي بها نميّز التمييز الخاصّ بالإنسان دون سواه من الحواسّ وهي التي بها تحصل المقولات والعلوم والصنائع بها تكون الرويّة " (الفارابي ص ١٩/ ٢٠) .

هذا التقسيم العامّ للإنسان يجب أن يؤخذ في الاعتبار ونحن نعالج القضايا اللغويّة. وإن لم نجد تصريحًا واضحًا دقيقًا عند النّحاة بما أورده الفارابي فإنّنا نجده في ثنايا أحكامهم على أجزاء هامة مما وصلوا إليه ولكن بصورة لسانيّة مطبقة على اللغة حسب مستوياتها المختلفة.

هذا التقسيم هو الذي نجده اليوم في الاتجاهات اللسانيّة الحديثة من تقسيم لمستويات اللغة عند الإنسان ومن بحث عن أسس عرفانيّة إدراكيّة متحكّمة في إنتاج اللغة.

نخلص ممّا تقدّم إلى أنّه إجرائيًّا ومهما برهن المختصّون النّفسيّون على وجود معنى في النّفس ومهما دافع أصحاب التوجّهات العرفانيّة العصبيّة على إمكانيّة التقاط المعرفي الذهني ، فإنّ المعنى يستحيل أن يكون خارج اللفظ " لأنّ اللغة تحتاج إلى اللفظ بدءًا بوسم نفسها وأنّ اللغة في جوهرها معنى موسوم باللفظ"[1].

هذه النتيجة تجعلنا أمام حقيقة موضوعيّة تاريخيّة : لم نكن أوّل من صنع "النحو" ولن نكون آخر من صنعه ونحن في صناعته متجهون إلى اللفظ ضرورة بحثًا عن المعاني المجرّدة عبر الزمان والمكان واستخراجًا للبنى الفكريّة المتحكّمة في بناء هذه اللغة من وجهيها "الألفاظ من حيث هي دالّة على المعقولات من حيث هي تدلّ عليها الألفاظ" (الفارابي ص ١٧) . وما ينتجه الفكر اليوم في هذا المجال سيتقاطع بالضرورة مع ما أنتجه الفكر يومًا ما في تراثنا .

ولكن هل أنّ مهمّة الباحث في التراث اليوم هو البحث عن هذه التقاطعات الموجودة هنا وهناك بين الحديث والقديم ؟

هنا نقف على أخطر مشكلة قد تواجه الباحث في الأفكار التراثية بمقاربة معاصرة.وهي مشكلة الإسقاط المباشر .

(١) الشريف ، الشرط والإنشاء النحوي للكون ص٥٢ .

٥- الإسقاط ونتائجه:

تعتبر مشكلة الإسقاط التي نراها اليوم منتشرة في كثير من مجالات البحث في التراث من المشاكل الحقيقية في البحث العلمي عندنا . والشعار العامّ الذي تتخذه هذه المشكلة هو"نحن كنّا الأسبق" ، ولعلنا لا نحتاج إلى تفصيل دقيق للقول في هذه الظاهرة فحسبنا أن نتصفح أيّة دراسة مقارنة في بعض العلوم المختصّة كعلم الطب أو الفيزياء البصرية أو الرياضيات حتى ندرك حضور هذه الفكرة وخطورة هذا الرأي .

ليس المهمّ في نظرنا البحث عن التقاطعات بين القديم والحديث لمجرد ردّ تقدمهم العلمي إلى أسبقيّة تاريخية لنا عليهم بحثًا لنا عن موقع جديد علمي. ولكن أهمية البحث في هذه التقاطعات تبرز في مستويين :

- مستوي يتعلق بتاريخ العلم .
- ومستوى يتعلق بالعلم ذاته.

أما ما يتعلق بتاريخ التفكير النحوي ، فلا يمكن لتاريخ العلوم أن يكون من خارج العلم ذاته كما هو الحال مع تاريخ النحو مثلاً. فتاريخ النحو إلى اليوم لم يكتبه نحاة أو باحثون في النّحو بل كتبه أصحاب الطبقات والتقطه مؤرّخون من خارج الاختصاص ، لأنّ التأريخ للعلم لا يكون من خارجه بل يجب أن يكون من داخله. فلو لم نعرف مثلاً أنّ سيبويه مثّل النقطة الأخيرة في المرحلة الأولى وهي مرحلة التأسيس لما استطعنا التعامل مع هذا النصّ من جهة حجمه الحقيقي.بل إنّ ما يصلنا أحيانًا ممّا يقع خارج دائرة الاختصاص يقود البحث لسنوات طوال ويستحيل إلى مسلمات .وللتدليل على هذه الفكرة نذكر ما انتهى إلينا من قضية الصراع بين مدرستي البصرة والكوفة .وقد أخذت هذه الفكرة باعتبارها مسلمة فذهبت مجموعة هامة[1] من الدراسات إلى أنّ الاختلاف بين المدرستين قد كوّن نحويْن مختلفين واتفق أغلبهم على أن مدرسة الكوفة قامت على الاتساع في السماع و الأخذ في الروايات عن العرب في حين تطور النحو البصري ضمن منهج يضيق السماع ولا يقبل إلا ما توفرت فيه شروط الفصاحة .لذلك غلب على منهجهم الجانب المنطقي العقلي .

مثل هذا الرأي السّائد استَند في الأصل إلى كتب الطبقات وقد استدلت الباحثة "القنوني" اعتمادًا على النظر في مجموعة من المناويل التفسيرية المختلفة في التراث النحوي من داخل النصوص إلى أنّ "منوال سيبويه والمبرد وابن السراج يصدر عن نسق نحوي واحد متطور ... وأساسه القوي يكمن في البحث عن عدد قليل من الأبنية المجرّدة

(١) أبو المكارم علي : تاريخ النحو العربي .
- الحلواني محمد خير ، الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين و كتاب الإنصاف .
- شوقي ضيف ، المدارس النحوية .
- المخزومي مهدي ، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو.

القادرة على استيعاب أكبر عدد من الأبنية المنجزة ولما كانت دراستهم للمعنى أهمّ فقد دفعهم هذا إلى إهمال اللفظ في حين قدّم الكوفيون تفسيرًا للإعراب يرى أسبقيّة اللفظ على المعنى "[1].

إذن من خلال استدلال عميق خلصت الباحثة إلى أننا أمام مقاربات مختلفة للظاهرة الواحدة ولسنا أمام ما تناقلته كتب الإخبار من صراع مرير بين مدرستين كانت علامته الكبرى موت سيبويه كمدًا من مناظرة الكسائي .

إذن فنحن أمام تفسيرين مختلفين لظاهرة واحدة . وهو ما نجده اليوم بين الاتجاهات اللسانية المختلفة بل في صلب الاتجاه الواحد أحيانًا . وما وقع في المدرسة التوليدية من تطور يقيم الدليل على ما ذهبنا إليه . وهذا الاختلاف واقع في اللسانيات كما هو واقع في العلوم عامّة لذلك فإنّ النظر إلى الاختلاف من هذه الزاوية يعطينا نتائج مخالفة عمّا استقرّ عن تاريخ العلم من خارجه . وهنا نبيّن أهميّة البحث عن تقاطعات كبرى بين القديم والحديث . هذا ما تعلق بتاريخ العلم .

أمّا ما يتعلق بالعلم فإنّ النظر إلى التراث يجب أن يكون بالنظر في الحدوس الأولى عند النّحاة وما تلعبه الحدوس من أهميّة في تأسيس العلوم . فكيف ذلك ؟

٦- الحدس النحوي:

يتميّز البحث في اللغة عن بقيّة العلوم في نقطة فارقة . فكلّ العلوم مهما أوهمت بدرجة التجريد والتعقد لا تعدو أنّها تصف شيئًا باعتماد اللغة .

ويكفي أن نورد للمعترض على هذا الرأي مثال الطبيب الذي يصف مرضًا ما باعتماد اللغة وعالم الحيوان يفعل فعله . وقد يُظنّ للوهلة الأولى أنّ ما يعتمد في الرّياضيّات أو البرامج الحوسبيّة هو شيء مخصوص يجاوز اللغة . ولكن بمجرّد النّظر إليها من زاوية لسانية نكتشف أنّ المعادلة الرياضية (١+٢X٤=١٢) ،ليست إلاّ جملة لسانيّة مكتملة الأركان وترجمتها اللفظيّة كالآتي :

[أضفنا الواحد إلى الاثنين وضربنا حاصلهما في أربعة فكان الحاصل اثني عشر]

فالمعادلة السّابقة وكلّ معادلة مهما بدت غريبة الرّموز لا يمكن أن ننجزها إلاّ لفظًا.

هذا الفصل الواضح بين العلوم المختلفة وأداة وصفها يضيع مع البحث اللغوي. "فاللغة تصف ذاتها بذاتها" .

(١) القنوني ، قضايا المنوال والتناسق النظري، ص ٣٦٣ .

انتبه المناطقة واللسانيون إلى هذه المشكلة وقد حاولوا البحث عن حلول لها . وقد دعا رومان جاكبسون[١] والشكلانيون الروس إلى ضرورة التمييز بين اللغة الواصفة واللغة الموصوفة(Métalangage) في الكتابة أو الترقيم ؛ لذلك غالبًا ما نجد نمطين من الكتابة في درج الجملة الواحدة من صنف [احتلّ الاسم الأوّل "زيد "موضع الابتداء في جملة زيدٌ ناجح ، واحتلّ ناجح الموضع الثاني الدّال على الإخبار] بل إنّنا نجد من اللسانيين من حاول مَقْولتها وشكْلنتها .

لسنا هنا بصدد البحث عن مدى صواب الفكرة من عدمه ولكنّنا أشرنا إلى هذه الظاهرة لأنّها تتعلق بمستعمل هذه اللغة وهو الواصف لها. فأنْ تصف اللغة نفسها بنفسها يعني أنّها " تكشف قواعدها باستعمال قواعدها ، وتستنبط دلالتها بما فيها من دلالات"[٢].

هذه العمليّة قد تمكّننا من التقاط الحدوس الأولى التي نقع عليها عند المتكلّمين بها أو المفكّرين فيها ولكن شريطة " أن يكون قد أقبل عليها وليس في ثقافته قيل وقال فيها " (ن م).

الحدس هو "الحكم أو المعنى أو الفكرة التي يصل الشخص "[٣]. ويتميّز هذا التفكير بأنّه يقوم على الإدراك المباشر والمفاجئ دون معرفة مستمدّة من عمليّات التفكير الاستدلالي سواء كان الاستدلال الاستنتاجي Deductive أو الاستدلال الاستقرائيInductive .

ويعتبر البحث في علاقة الحدسي بالعلمي من المباحث الأساسيّة في العلوم العرفانيّة اليوم.

ومن أغرب الشواهد في التاريخ العلمي على الحدوس العلميّة هي "معادلة فرما Fermat الرياضيّة فالحدوس قد نجدها في كلّ العلوم حتى تلك التي وضعت المنطق الرياضي شعارها الكبير. ولكن ماهي علاقة الحدس بالفكر اللغوي ؟

بدأت الإشارات الأولى إلى هذه الطبيعة المجرّدة جدّا للفكر اللغوي إلى الرّسالة الأفلاطونيّة السّابعة "فبعد إثبات الكلمة والحدّ والمثال باعتبارها درجات ثلاثًا في الإمساك بالشيء، يقدّر أفلاطون أنّ المضاف الأعلى في ذلك هو الارتقاء إلى أصول الموجودات "[٤].

---

(1) Jakobson Roman ، Essais De Linguistique Générale .

(٢) الشريف ، الشرط والإنشاء النحوي للكون ص ١١٨٢ .

(٣) خليفة عبد اللطيف محمد ، الحدس والإبداع ص١٦.

(٤) صالح الكشو ،مدخل في اللسانيات ص ٣٠ .

ويقرّر في الإطار ذاته ، أنّ "الكلمة تحتلّ في بناء المعرفة الجدليّة مركزًا لا ينازعها فيه أيّ عنصر آخر ، وإنّ عدم استقرار معانيها هو الذي يحث أهل الفلسفة على التطلع إلى التركيز المطلق للمفاهيم المجرّدة"

البحث في هذا المجرّد المتعالي عرف خطوة أخرى مع البحث الذي أجراه أرسطو باعتماد المقولات المنطقيّة العامّة التي تداخل فيها اللغوي مع المنطقي.

هذه الفكرة القديمة عادت بقوّة مع النّحو التوليدي فقد سعى هذا الاتجاه منذ البداية إلى البحث عن هذه الملكة الكامنة في الإنسان وهي التي وسمها تشومسكي بالنّحو الكلّي UG ، وهي ملكة فطريّة يحتكم إليها المتكلّم المثالي مطلقًا.

من هذه الزّاوية يصبح للحدس دوران مركزيّان لمتكلّم اللغة والمفكر فيها :

- فهذا الحدس مركوز في الذات المتكلّمة مطلقًا دون تمييز.
- وهو مُنتِجٌ أساسي للفرضيّات الخاصّة والعامّة التي يعتمدها من يشتغل على اللغة ، هذه الفرضيّات قد تكون واضحة كما هو الشأن في اللسانيّات المعاصرة وقد تكون مبثوثة بين ثنايا الكلام الذي يكشف عن الفكر بالنّسبة إلى القدامى.

هذه الفكرة مركزية في الاتجاهات اللسانية المعاصرة بل إنّ " حدس المتكلم يشكل الدليل الوحيد، الذي يستعمله النحاة التوليديون بشكل متزايد"[1].

ولكن متى يمكن لنا أن نتحدّث عن حدس أصيل قويّ؟

من شروط الحدس العلمي أن لا يكون مستندًا إلى نظريّة مسيطرة أو إلى أفكار مسبقة . لذلك يرى الشريف أنّه من الأوْلى أن نبحث عن "مخبرين يخبروننا عن أهمّ المفاهيم التي يخرجها أوّل استعمال للغة في وصف اللغة ، قبل أن تكثف المعارف وانحجاب الرّؤية".

هنا تظهر لنا قيمة "نادرة" في النظر إلى التراث النحوي القديم ، فكلّ الإشارات تدلّ على أنّ التفكير النحوي من بدايته وإلى حدود ظهور كتاب سيبويه لم ينظر في اللغة "بفلسفة سابقة ولا حكمة عميقة غير حكمة المتكلّم في اللغة والسّائل لأصحابها فيها لما في ذهنه منها "[2].

(١) ماثيوز، اللغة مقدرة عقلية .

(٢) الشريف الشرط والإنشاء النحوي ص١١٨٣.

و إذا قمنا باستعراض سريع للمؤسّسين الأوائل للنحو نجد عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي "هو أوّل من بعج النحو وسنّ القياس وشرح العلل"[١]، لم يكن قياسه "قياسًا أرسطيًّا ولا أفلاطونيًّا وإنّما كان قياس فطرة وعقل"[٢].

وأمّا أبو عمر بن العلاء فقد كان يتمتع باطلاع واسع باللغة العربيّة استعمالاً وحفظًا وقد أغنته عن التوسّع في القياس فاكتفى في اختيار الأفصح باعتماد نصّ التنزيل ، والقياس الأفصح في تصوّره "وهم سكّان السروات من الجبال المطلّة على تهامة وهي هذيل وثقيف وأزد شنواة وعليا تميم وسفلى قيس "[٣].

لقد نظر أبو العلاء إلى النحو "باعتماد على إحساسه اللغوي المدعم من طرف استعمال من يثق بعربيّتهم"[٤].

ولم يختلف الأمر كثيرًا مع من هيأ أسباب نشوء "الكتاب "وهم عيسى بن معمر الثقفي ويونس بن حبيب الضبي والأخفش الكبير والخليل ابن أحمد الفراهيدي "[٥]

ولعل ما جاء في الخبر المنقول عن الخليل يعتبر دليلاً واضحًا على أنّ النّحاة المؤسسين قد فهموا اللغة دون سابق حكمة سيطرت على تصوراتهم بل كانت نتيجة نظرهم في اللغة باللغة "فقد سئل الخليل عن بن أحمد عن العلل التي يعتل بها في النحو فقيل له عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال إن العرب نطقت على سجيّتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها .وعللت أنا بما عندي انه علة لما عللته منه .فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست.و إن يكن هناك علة غير ما ذكرت فالذي ذكرته محتمل أن يكون علة له."[٦] [٧].

هذا النص دليل على أنّ الخليل يرى اللغة مباشرة ويبحث عن تلك الملكات الفطرية التي جهز بها المتكلم .وما ندعو إليه اليوم هو إتباع لغة واصف وصف اللغة دون سابق كلام ينظر في متكلم تكلم على سجيّته .

الاستقراء السريع لهذه الأسماء يكشف أنهم يمثلون مع سيبويه الحدوس الأولى التي لا يمكن العثور عليها عند غيرهم وهو ما دفع الشريف إلى " أنّه إن لم يكن في التراث من سبب يدعو إلى النظر فيه غير هذا فهو سبب كاف للانكباب عليه و النظر فيه "[٨] .

---

(١) الزبيدي ، طبقات النحو ص ٣١.

(٢) ولد أباه محمد المختار، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب ص ٥٦.

(٣) السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ج ٢ ص ٤٨٣ .

(٤) ولد أباه، تاريخ النحو العربي ص٦١.

(٥) أبي الطيب اللغوي، مراتب النحويين ص ٧٠ .

(٦) السيوطي ، الاقتراح ص ٩٤- ٩٥ .

(٧) الزجاجي، الإيضاح في علل النحو ص ٦٤- ٦٦.

(٨) الشريف، الشرط والإنشاء النحوي للكون ص ١١٨٥ .

حاولنا انطلاقًا من فكرة حدسية الأفكار اللغوية عند من نظر في اللغة باللغة دون خلفية فكرية أن نكشف عن أهمية النظر في التراث و عن اعتبار هذا الثاوي في ذهن المفكر النحوي دافعا أساسيًا للنظر في التراث . فدور الباحث إذن :

١ - استقصاء الحدوس الأولى في التراث الفكري اللغوي .

٢ - الرّفع من شأن التراث – من هذه الزاوية – حتى يكون متاحا للفكر اللساني الكوني باعتباره رصيدًا إنسانيًّا مشتركًا وما فيه من ملاحظات ذات طابع كوني لا يقلّ أهميّة عن معادلات الخوارزمي أو نظريّات ابن الهيثم أو أفكار ابن رشد.

ولكن هل يستقيم استقصاء الحدوس دون البرهنة على صحّتها ؟

نقف هنا على خطر آخر في التعامل مع التراث يقلّ عن خطورة الإسقاط النظري الذي أشرنا إليه في أوّل العمل فالاكتفاء بالبحث عن الحدوس يعتبر عملاً ناقصًا إن لم يفسّر بمنهج أثبت قوّته الإخباريّة .

تعدّدت مناهج البحث العلمي ولكن من أهمّ هذه المناهج في البحث اللغوي وهو المنهج الافتراضي الاستنتاجي hypothetico-deductives، وهو منهج علمي يعتمد فيه جملة من الاستدلالات المنطقية ينتقل بمقتضاها من العامّ إلى الخاص. وينطلق الباحث في هذا المنهج من فرضيّات تستند إلى جملة من المقدّمات .ومن المقدمات ما يكون مبنيًا على حدوس بسيطة . ويقوم خلال عمله بالاستدلال لها أو عليها . والنتائج التي يتوصل الباحث تكون عادة مُضمّنة في المقدمات لذلك تعتبر نتائج في هذا المنهج أخص من مقدماته .

٧- حدس "الدائرة" في التراث :

تقديم الشروط النظرية أبسط من تطبيقها وحتى لا يكون كلامنا ضربًا من وضع الشروط العامّة دون تقديم الأمثلة المصدقة لها نقدّم مثالاً على حدس واحد من الحدوس المبثوثة هنا وهناك التي مازالت تنتظر الباحثين حتى نخرجها من مظانها ونشتغل عليها .

مدار الحدس الذي انطلق مما لاحظه "الشريف" (ص١١٨٤/١١٨٥) وهو يبحث في التراث في سنوات السبعينات . فقد انتبه إلى فكرة ضمنية لا يصرّحُ بها ولكنها حاضرة بقوة ومفاده "تلبّسُ الخليل بمفهوم الدّائرة" فقد بحث عنها في الإيقاع فكانت بحوره الشعريّة قائمة عليها . وبحث عنها في الجذور فكانت التقليبات المختلفة صورة منها. ونراها في أجوبته عن أسئلة سيبويه التي ينقلها في الكتاب فكلما سأله عن بنية نحويّة أجابه بأخرى وكأنّه كما يقول الشريف "أراد أن يؤلف بين الجمل كما ألف بين الجذور والأصوات من قبل " .

هذه الملاحظة التي التقطها الشريف اعتبرها ضربًا من الحدس المركوز في ذهن صاحبه . تجاوز مجرّد الملاحظة لتصبح فرضيّة عمل صاغها وفق السؤال التالي : " أمِنَ الضروريّ أن نعتقد مثل دي سوسير أن اللغة خطيّة " وماذا يكون لو تصوّرناها دائريّة" (ص ١١٨٤). اختبر "الشريف" هذه الفرضيّة في مستويات اللغة الدقيقة فانتهى إلى أفكار مختلفة من بينها "القول بأن البنية النحويّة متحرّكة غير ثابتة وهي تتحرّك في خط دائري وفقًا لبنيتها الدّائريّة " وتتولّد الأبنية بفضل قواعد الدّور التكراري التي تقوم على تكرار العلاقات المجرّدة جدًّا هي علاقات الحدثية ، فتتولد منها البنية الاشتقاق والإعراب ، وبفضل التعامل بينهما تكون هذه البنية قابلة للإنجاز في مقام تداولي " (ن م ص ١١٩١).

ليست هذه الفرضيّة إلا مثالاً على حدس أوّلي بسيط مركوز في اللغة استعمله متكلم والتقطه باحث يؤمن بأنّ اللغة تبقى الخلاصة العليا لحركة العقل الإنساني في التاريخ "(ن م ص ١١٩٥). واعتبره أساسًا نظريًا مكّنه من إنشاء نظرية في اللغة وهي النظرية الموسومة " بالشرط والإنشاء النحوي للكون" وبعض منها كان معتمدًا على هذا الحدس وغيرها من الحدوس التي لا يسمح المقام باستعراضها .

هذا الحدس المبثوث بين الخليل وسيبويه التقطه الشريف واعتمده افتراضًا للعمل واستدلالاً على صحّته في مستويات مختلفة من أسسه النحويّة [1].

لا يتسنى التقاط هذه الحدوس إلا إذا قرأنا النصوص التراثية بأنفسنا بصورة مباشرة .وهنا نصل إلى الشرط الأخير من الشروط العامة التي حاولنا تقديمها في هذا العمل .

٨- القراء المسيطرة وتحديات قراءة النصوص مباشرة :

من التقاليد التي سيطرت لفترة طويلة في مقاربة التراث اللغوي الاعتمادُ على التصورات العامة حول نص أو عن مفكر. هذه الفكرة تُتَنَاقَلُ فتستحيل حقيقة تضعنا أمام مشكلتين :

- المشكلة الأولى: استقرار قراءة واحدة مسيطرة تصبح قانونًا وتصبح مخالفتها تحديًا للباحث.
- المشكلة الثانية : إضاعة ما في هذه النصوص من ثراء عبّرنا عنه سابقًا بالحدوس الأولى .

(١) كان لفكرة دائرية البنية النحوية أثرها في عدد هام من الأعمال نذكر منها :
ابن صوف مجدي : الأبنية المركبة بأدوات الشرط وعلاقتها بالأبنية المشابهة لها عند سيبويه .
المبخوت شكري : دائرة الأعمال اللغوية .
سامية الدنقير : الأبنية المركبة بالموصولات الحرفية و علاقتها بالأبنية المشابهة .

للاستدلال على خطورة هذا المنهج ما وجدناه ونحن ندرس نصًا من أهم النصوص التراثية[1] وهو " مفتاح العلوم" لسراج الدين يوسف بن أبي بكر محمد بن علي أبي يعقوب السكّاكي الخوارزمي (٥٥٥ هـ ٦٢٦ هـ)[2].

لم يلق هذا المصنّف من البحث ما هو حقيق به، إذ على جمعه بين علوم لسانية مختلفة ومتعدّدة وهي علم الصرف، ويضمّ عنده، علم الأصوات وعلم الاشتقاق وعلم النّحو وعلم المعاني وعلم البيان وعلم الاستدلال، فإنه لم تقع معالجته في ذاته باعتباره نصًّا واحدًا يحرّكه تصوّر نظري واحد، بل وقع اقتطاع الجزء المعتني بعلم المعاني والبيان ليقوم هذا الجزءُ مقام الكتاب بأجزائه المختلفة ، وليُختزل مفتاح العلوم في قسمه الثالث المبني على هذين العلمين، بل وليُضرب صفحًا عن النّص الأصلي في جزئه المختزل وتحلّ محلّه التلاخيص والشّروح التي نالت شهرة فاقت أحيانًا شهرة مفتاح العلوم نفسه.

قراءتنا المباشرة لنص المفتاح دفعتنا إلى مقاربة هذا المصنف اعتمادًا على كل أقسامه، مخالفين بذلك كل من اقتصر في معالجة هذا النص على قسمه الثالث، اعتمادًا على تلخيصه لا اعتمادًا على النص ذاته وأخذًا بالآراء السائدة عن المفتاح باعتباره نصًّا في المعاني والبيان والبديع. وقد قدّمنا الاستدلالات المختلفة على ضرورة قراءة المفتاح كما وضعه صاحبه لا كما ساد عنه بفعل الملخّصات والشروح.

وقد اقتضى منّا هذا الأمر قراءة المفتاح من داخله. فاعتمدنا على الجمل الأصول فيه وهي الجمل النظريّة التي تعبّر عن وعي السكاكي بمفهوم التمام النظري القائم بين المنظومات اللسانية المختلفة المنضوية تحت ما وسمه ـ " بعلم الأدب ".

وهذه الجمل على قلّتها، وغموض المفاهيم المستعملة فيها أحيانًا، وتشتّتها في ثنايا التفاصيل الدقيقة، مثلت لنا الخيط النظري الرفيع الذي يقوم عليه انتظام كل التصوّرات في المفتاح.

صور هذا الانتظام تتجلّى في الجمل "التطبيقية " التي تحمل كمًّا هائلاً من القوانين الصّوتية والصّرفية والنّحوية والبيانيّة والنّحوية والمنطقية.

هذه القواعد هي التي دفعت من قرأ المفتاح من خارج النص بالاعتماد على الشروح أو التلاخيص إلى اعتبار أنّ الطريقة التي توسّل بها السكّاكي لعرض هذا التراث النّحوي والصّرفي والمعنوي- وهي طريقة تقوم على التقسيم والتفصيل والتبويب والتفريع- قد أفرغت التراث اللساني العربي من قوّته النظرية. بل إنها مزقت أوصاله وزهقت روحه.

(١) ابن صوف مجدي : علم الأدب عند السكاكي .

(٢) السكاكي : مفتاح العلوم .

ولكننا انتهينا في عملنا إلى أنّ الطريقة التي أخرج عليها السكّاكي هذه المعلومات الجزئية المتعلقة بمختلف العلوم لا تقلّ أهميّة في نظرنا عن الجمل النّظرية التي أولياها عناية مخصوصة مخالفتنا للكثيرين في طريقة قراءتهم للمفتاح استتبعت بدورها اختلافًا في فهم بعض المفاهيم المركزية التي استعملها السكّاكي في نصّه. ومن أهمّها مفهوم "علم الأدب" وهو العلم الذي على أساسه قام هذا المصنّف.

لا يحمل هذا العلم الدّلالة الشائعة باعتباره علمًا لا موضوع له، بل إنّ السكّاكي يحمّله دلالة مخصوصة لا تُدرك إلا من العلوم التي تكوّنه. وهي علم الصرف بتمامه وتمامه بعلم الاشتقاق ويضم أيضًا علم الأصوات وعلم النحو بتمامه، وتمامه بعلم المعاني بتمامه. وتمامه بعلم البيان وعلم الاستدلال. وهذا التصور ينسجم مع ما كنّا دعينا إليه من إعادة لمفهوم النحو في الفقرات السابقة .

تضمّن هذا العلم الجامع لمختلف هذه العلوم التي تشترك في معالجتها للكلام من مختلف زواياه، هو الذي شجّعنا على القول إن "علم الأدب " في المفتاح هو تحسّس لما يسمى عندنا اليوم بـ "علم اللسان العام". وقد ملنا في عملنا إلى هذا الرأي أكثر عندما عالجنا تصوّر السكّاكي لمفهوم "اللسان" إذ لم نجد عنده تبلورًا واضحًا لهذا المفهوم ولعلّ هذا ما جعله يستعيض بلفظ "أدب" عن لفظ" لسان ".

أقام السكّاكي هذه العلوم المختلفة على علاقة التمام. وقد مثل فيها علم النحو الذي استعمله السكّاكي بمفهومه الضيّق المقتصر على الجانب الإعرابي التصريفي، الأساس الذي تقوم عليه العلوم الأخرى. فالمفرد الذي هو موضوع علم الصرف لم يوضع ـ حسب السكّاكي إلا ليتركّب. وهو ما أدّى إلى اقتضاء الصّرف لعلم النحو في المفتاح.

أما من جهة علاقة المعاني بالنحو فقد اعتبر السكّاكي أن أصل المعنى مطلقًا مترسّخ في النحو، ولذلك فإن مراتب المعاني المختلفة التي تصل إلى حدّ الإعجاز تنبني ضرورة على هذا الأساس النحوي.

سيطرة النحو على الاستدلال استتبعت سيطرة النحو على البيان والاستدلال. ذلك أنّ هذين العلمين هما شعبة من شعب علم المعاني، وبما أنّ علم المعاني هو تمام للنحو فإنّ البيان والاستدلال بدورهما تمام للنحو.

إن كان الأمر بالنسبة إلى علاقة البيان بالمعاني ومنه إلى النحو واضحة. إذ البيان شعبة من المعاني ويجري منه مجرى المركّب من المفرد، لقيام المعاني على مطابقة التركيب للمعنى الواحد مع مراعاة مقتضيات الأحوال ، بينما يقوم البيان على إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة عليه في وضوح الدلالة، فإنّ علاقة الاستدلال بالمعاني والبيان ومنه إلى النحو، أي بلغة أخرى ردّ الاستدلال إلى النظام اللساني اقتضى منا تتبّعًا دقيقًا .

ونكون بهده القراءة التي تناولت نص المفتاح برمته قد خالفنا الشائع في المقاربات الفلسفية أو اللسانية التي تلحق النحو بالمنطق لادّعاء أصحاب هذه النظرة أن المنطق قادر على حلّ المشاكل اللسانية المتأتية من اللبس الحاصل في اللغة الطبيعية، خلافًا للغة المنطق الشكلية والتي تتميز – حسب هذا الرأي – بدرجة عالية من الصّرامة والدّقة. فقد استطعنا البرهنة من خلال المفتاح على فكرة نادرة وهي ردّ المنطق إلى النحو باعتباره جزءًا منه وهو مشروع نجد صداه عند بعض المفكرين الكبار الذي يرون اللغة تختزن المنطق الطبيعى البسيط الذي تتجلى قوانينه في المنطق الصناعي .

فقد ردّ السكاكي المنطق إلى النظام اللساني من باب المعاني. وليدعم هذا الدخول استعمل في كامل قسم الاستدلال، مصطلحات نحوية خالصة (مبتدأ، خبر، جملة...) للتعبير عن أشكال منطقية مختلفة استقرّت في التراث المنطقي العربي - منذ الترجمات الأولى لكتب أرسطو المنطقية – التعبير عنها بمصطلحات منطقية خالصة (موضوع، محمول، قضية...). فالقضية المنطقية مثلاً لا تعدو عنده أن تكون جملة عادية تحققت فيها كل الأسس النحوية من إسناد ومبتدإ وخبر وحكم بينهما نفيًا أو إثباتًا.

من هذا المنظور، استطعنا أن نفهم أحد الأسباب التي دعت السكّاكي إلى البدء بعلم الأصوات، وهو موضع لم نألفه في المصنفات النحوية القديمة. فقد انطلق- عمدًا - في بحثه من أقصى درجات التحقّق اللفظي المتمثل في الأصوات باعتبارها تمثل الجانب المّادي الفيزيائي من الكلام، منتقلاً منه إلى المعنى الأصلي المترسّخ في النحو، فالمعنى المطابق لمقتضيات الأحوال في علم المعاني وعلم البيان، ومن ثمّ الانتهاء إلى المعنى الصّوري المتحقّق بعلم الاستدلال، ليقطع بذلك مع مناهج المناطقة الذين يعتنون بالمعنى على حساب اللفظ، وهذا الموقف نقله السكّاكي لنا على لسان "الكندي" في معالجته لقضايا الخبر، حين اعتبر أنّ في كلام العرب حشوا[1] .

اعتمادًا على الاختزال السريع لهذه المقاربة نكشف أهمية مقاربة النصوص التراثية دون قراءة مسيطرة لها معتمدين على تصوّر جديد للمفاهيم الأساسية في التراث باحثين عن حدوس مبثوثة هنا وهناك .

فما تلتقطه أذهاننا قد يكون مختلفًا عما التقطه غيرنا كما أن ما التقطه غيرنا في زمان غير زماننا لا يمكن لنا أن نلتقطه .وتلك حال العين فما تراه جليّاً قد يخفى على صاحبك فلماذا تُلزمه بأن يرى إلا ما ترى مدعيًا أنك تـَهديه سبيل الرشاد .فسبيل الرشاد في المعرفة هو التمحيص الذاتي المباشر بالاستعانة بهذه الأدوات المنهجية الضرورية التي أشرنا إليها في متن العمل .

(١) المفتاح ص ١٨ .

الخاتمة

انطلقنا في هذا العمل من تحديد موقع التراث اللغوي مقارنة بغيره من الإرث الفكري العربي الإسلامي، وقد بينا كيف يمكن لنا أن نعيد البحث اللغوي – اللساني العربي إلى حركة الفكر البشري اعتمادًا – في جزء منه العمل – على هذا التراث . ولا يمكن أن يتحقق الاستغلال الجيد للتراث إلا بجملة من الشروط الضرورية في قراءته . وقد اختزلنا هذه الشروط في ضرورة إيمان الباحث أنّه يعالج ظاهرة مشتركة بين كل البشر في الزمان والمكان، إنها "اللغة" فما قيل فيها منذ ألف سنة قد يكون مفيدًا. فالأفكار لا تسير في صورة موازية لحركة الزمن التاريخي ولو كان الأمر كذلك لضربا صفحًا عن كل فكرة سابقة لزماننا .

النظر في الأفكار السابقة يقتضي منا إعادة فهم لبعض المفاهيم المركزيّة في البحث اللغوي يكون منها، لا يتجاوزها ولكنه يستغلها استغلالاً جديدًا.ويتدعّم هذا الأمر بالبحث عن الحدوس الأولى وقد أشرنا إلى أنّ البحث عنها يمثل كنزًا معرفيًا على الباحث استخراجه .ولا يكون التعامل مع التراث النحوي باعتماد مناهج نظرية قوية وقد اقترحنا المنهج الافتراضي الاستنباطي الذي أثبت نجاعته النظرية في البحوث اللسانية، ولا يكون ذلك إلا بالنظر المباشر في النصوص لا الاعتماد على قراءات سابقة بأفكار مسبقة .

المراجع :

- أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي الحلبي. مراتب النحويين . تحقيق :محمد أبي الفضل إبراهيم، مصر: مطبعة دار النهضة ، ١٩٥٥م.
- أبو المكارم ، علي . تاريخ النحو العربي . مصر : القاهرة الحديثة للطباعة ، ١٩٧١ م .
- أورفييه ، ميشال . البحث عن دي سوسير من جديد . ترجمة وتقديم : مجمد خير محمود الرفاعي ، ليبيا ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ٢٠٠٩ م .
- أبو دية ، محرز . قراءات في عتبات الكتاب.تونس : كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، ٢٠١٢ م.
- ابن صوف ، مجدي . الأبنية المركبة بأدوات الشرط وعلاقتها بالأبنية المشابهة لها عند سيبويه . تونس : كلية الآداب منوبة ، ١٩٩٨ م .
- ابن صوف ، مجدي . علم الأدب عند السكاكي : بحث في انتظام التصورات اللسانية في مفتاح العلوم .تونس : دار مسكلياني للنشر ، ٢٠١٠ م .
- تشومسكي ،نعوم . كتاب اللغة والمسؤولية . ترجمة : حسام البهنساوي ، مصر : مكتبة زهراء الشرق القاهرة ، ط الثانية ، ٢٠٠٥ م .
- الحلواني ، محمد خير. الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين في كتاب الإنصاف . حلب : دار العلم العربي ،(دت).
- خليفة ، عبد اللطيف محمد. الحدس والإبداع . القاهرة مصر: دار غريب للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٠م .

- الدنقير، سامية . الأبنية المركبة بالموصولات الحرفية و علاقتها بالأبنية المشابهة . تونس : كلية الآداب منوبة ، ٢٠٠٠ م .
- روي ، هاريس وتولبت ، جي تايلر . أعلام الفكر الغربي ، التقليد الغربي من سقراط إلى دي سوسير . ترجمة : أحمد شاكر الكلاّبي ،ليبيا ،دار الكتاب الجديدة ط الأولى ، ٢٠٠٤ م.
- الزبيدي ، محمد بن الحسن الأندلسي. طبقات النحو . تحقيق: محمد أبو الفضل ، مطبعة السعادة .
- الزجاجي ، عبد الرحمان بن إسحاق . الإيضاح في علل النحو . تحقيق : مازن المبارك ، مكتبة دار العربية ، ١٩٥٩ م .
- السكاكي ، يوسف بن محمد . مفتاح العلوم . تحقيقِ :نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، ط الأولى، ١٩٨٣م .
- السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر. المزهر في علوم اللغة و أنواعها . تحقيق : فؤاد علي منصور ، بيروت :دار الكتب العلمية ، ١٩٨٨ م .
- الشريف ، محمّد صلاح الدّين . الشّرط والإنشاء النّحوي للكون : بحث في الأسس البسيطة المولّدة للأبنية والدّلالات . تونس : جامعة منّوبة ، منشورات كلّية الآداب ، ٢٠٠٢ م .
- شوقي ، ضيف. المدارس النحوية . مصر : دار المعارف ، ط السابعة ١٩٦٨م .
- الكان ، فلكس . فلسفة الروح سيكولوجية الفكر النظري . ١٩٤٥ م .
- الفارابي ، محمد بن محمد .إحصاء العلوم . القاهرة : دار الفكر العربي.
- القنوني ، منيرة . قضايا المنوال والتناسق النظري اعتمادًا على مسائل الخلاف . تونس: كلية الآداب والفنون بمنوبة ، ٢٠٠٣ م .
- الكشو، صالح . مدخل في اللسانيات . تونس : الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٥ م .
- المبخوت ، شكري . دائرة الأعمال اللغوية : مراجعات ومقترحات . ليبيا : دار الكتاب الجديد المتحدة ، ٢٠١٠ م .
- المخزومي ، مهدي . مدرسة الكوفة و منهجها في دراسة اللغة والنحو . بيروت : دار الرائد العربي ، ١٩٨٦ م . ولد أباه ،محمد المختار . تاريخ النحو العربي في المشرق و المغرب . دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧ م.
- Chomsky, N. **Deep Structure Surface Structure And Semantic Interpretation In Jacobson And Kawamato** .1990.
- De Saussure, F. **Cours De Linguistique Générale**. Ed Payot, 1995.
- Hjelmslev، L .Prolégomènes A Une Théorie Du Langage. Paris : Minuit , 1971 .
- Jakobson, Roman . **Essais De Linguistique Générale** Editions De Minuit, 1963.
- Lattès , Jean-Claude . **Le Dernier Théorème De Fermat**. Hachette Littérature, 1999
- Merleau-Ponty Maurice. **Phénoménologie De La Perception** . Gallimard : 1945.

Abstract:

We attempted in this article to present a global and detailed view about the mere fundamental conditions that a researcher in the linguistic heritage must enjoy. Our aim is to get the Arabic linguistic research back to the movement of human thought, partially relying on investigating this heritage. We summarized these conditions in the fact that the researcher should believe that he/she is dealing with 'language', a common phenomenon shared by human beings in place and time. What was said about it before one thousand years ago may be interesting because ideas do not run in a parallel line with the movement of history. If that is true, we would, then, refute any former idea.

Studying former ideas necessitates the reconsidering of some central notions in linguistic research not by overstepping them but by making use of them in a novel way. This is reinforced by looking for the first intuitions that gave birth to the big hypotheses from within heritage. This happens only if we apply a hypothetico-deductives methodology which has proved its theoretical efficiency in linguistic research. The fundamental conditions are completed only by the direct reading of the texts not by relying on old explanations or interpretations tinged with preconceived ideas.